

الدراسات والأبحاث | Research Papers

التماس المطلق بين الشرط الروحاني والخواء العدمي

دراسة مقارنة بين تصوف النفري ووجودية سيوران

**The Quest for the Absolute between a
Spiritual condition and a Nihilistic void.**

**A Comparative study between al-Niffari's
Mysticism and the Existentialism of Cioran.**

مصطفى العطار⁽¹⁾ | Mustapha el Aattar

ملخص البحث:

حسب هذا الدراسة أنها تقدم قراءة جديدة تنماز عن التلقي السائد لمواقف النفري؛ إذ لم تكتف بتحليل خطاب الفراغ من السّوى الذي يشكل عماد كتاب «المواقف»؛ بل عمدت إلى ملاحقة مديات هذا الخطاب الرؤيوي في أعمال صوفية تنتمي إلى اللاهوت الوجودي، محاولة القبض على المطلق كما يتصوره كل من النفري وسيوران، لتخلص إلى أن مسارات ملاحقة المطلق تتم في اتجاهين متعاكسين؛ واحد يعرج إلى عالم نوراني برزخي تتحقق معه السعادة الأبدية ويحظى فيه بالمجاورة والضيافة، وآخر يولي وجهه شطر الماضي باحثاً عن السعادة (ما قبل الولادة) قبل أن يقذف به المخاض إلى غور سحيق من العالم المادي ليحيا المأساة الأبدية.

إننا، وهنا، بصدد كتابة متفردة مدارها على التشذير والتقطيع والتفكير خارج الأنساق المجتمعية، والتماس الخلاص بين التحقق واللا تحقق، أو بين المطلق الممكن (تجربة الوقفة)، والمطلق اللا ممكن (ما قبل الولادة)؛ وهو تضاف يتجاوز الشرط التاريخي ليطال أسيقة مفتوحة تنبئ عن الخصوبة التي تضمها مواقف النفري التي تتصادى مع تجارب جديدة رغم اختلاف المنطلقات العقدية.

الكلمات المفتاحية: الكتابة - التشذير - المطلق - الفراغ -

الامتلاء.

Abstract:

This study presents a new reading that is distinct from the predominant reception of Al-Nafri positions.

مهاد وتوطئة:

يفاجأ القارئ لمواقف النفري بغياب النص والحاشية والعتبات للإمساك بالمعنى المتفلت، وكل شذرة يطالعها تزيد من إحساسه بالعجز في تفكيك متواليات نزاعة إلى الهروب من قفص المعنى دون أن يكون لها قرار. هذا الجموح الدلالي هو تثوير لسؤال المعنى في المواقف، واعتراف بالعجز الذي يعترينا كلما حاولنا مباشرة عملية التلقي التي تجعلنا أشبه بمن نقضت غزلها من بعد قوة. لعل هذا التشويش المتعمد في الشذرة هو ما يستوجب الصبر والمجاهدة لمعرفة هوية قطعة لم تتخلق بعد، وتحديد ملامح مولود لا يزال في طور التشكل.

ومضات النفري هذه أشبه بومضات نيتشه، وعبارات فتجنشتاين، وقبسات إيميل سيوران اللعوب؛ حيث الخفة، والرشاقة، واللامعنى، والجنون الآسر، والنزق الطفولي، والعفوية، والسذاجة، والتأمل، والقلب الشفيف الفارغ الذي تساكن مع وجوده الذاتي الممتد والغفل عن السوى؛ ولكنه خاصم الوجود الغيري الذي يسبح في فلك محدود وفهم مقدود. لا تفتأ مواقف النفري تتجدد في كل مرة نتغيا تأويلها؛ مواقف من فوقها غموض ومن تحتها

As it was not satisfied with analyzing the void discourse that forms the basis of the book «Al-Mawaqif» Rather, it traces this visionary discourse in mystical works that belong to the existential theology, trying to arrest the Absolute as envisioned by both Al-Nafri and Seuran, to conclude that the paths that follow the Absolute take place in opposite directions. One passes through a luminous world of Isthmus with whom eternal happiness is achieved and in which he enjoys neighborliness and hospitality, and another turns his face toward the past in search of (pre-natal) happiness, before labor throws him into the deep depths of the material world to live the eternal tragedy.

It is a combination that goes beyond the historical condition to reach an open context that predicts the fertility that is contained in the positions of Al-Nafri that resonate with new experiences despite the different doctrinal principles.

keywords: Writing, shredding, absolute, void, fullness

مواقف النفري وشذرات سيوران، الطريق إلى الخلاص:

يلتقي النفري مع سيوران^(٢) في طريقة الكتابة والبوح، وفي المغامرة الشديدة للواقع:

(٢) محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، من أعلام التصوف الإسلامي، ولد ببلدة نفر في محافظة القادسية العراقية، من أشهر كتبه: «المواقف والمخاطبات»، ارتبط اسمه بالعبارة الشهيرة: «كلما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة». تنقل بين العراق ومصر، واتسمت فلسفته بالغموض.

- أما إميل ميشال سيورا، فقد ولد يوم ٨ نيسان- أبريل ١٩١١ ف ي «رازيناري» وهي قرية في مقاطعة ترانسلفانيا الرومانية من أب قسيس أرثوذكسي، وعرف منذ طفولته بحبه للعزلة والتنزه في الجبال المحيطة بقريته، وأمضى الأعوام ما بين ١٩٢٨ و ١٩٣٢ في جامعة بوخارست؛ حيث حصل على دبلوم حول الفيلسوف برغسون، واكتشف الفيلسوف الألماني سيميل. ويتحدث سيوران عن حالات من الأرق واليأس لازمته خلال هذه المرحلة فأوحت إليه كتابه الأول الذي ألفه سنة ١٩٣٢ ونشره سنة ١٩٣٤ تحت عنوان على ذرى اليأس. ثم أعقبته عناوين مثل كتاب الخُدج، ودموع وقديسون، ومر مرحلة صعبة في حياته لم تميزها سوى رحلة إلى باريس لمدة شهر قرر إثرها الإقامة في فرنسا التحق بالسوربون لدراسة اللغة الإنكليزية فاكتشف الشعراء الإنكليز ثم قرر تعميق لغته الأم الرومانية لكنه سرعان ما استعرب هذا الاختيار، حتى قرر سنة ١٩٤٦ أن يقطع مع لغته ومع الماضي، من أجل الإقامة النهائية في فرنسا؛ لذلك بدأ يطور لغته الفرنسية، ونشر كتابه الأول بهذه اللغة بعد ثلاثة أعوام، أي سنة ١٩٤٩، ضمن منشورات «غاليليا» التي سوف تتولى أعماله لاحقا، فكان أول كتاب ينشره بالفرنسية بعنوان: موجز التفكيك، وحصل به على جائزة اللغة الفرنسية المخصصة للكتاب الأجنبي، كان من بين أعضاء لجنة التحكيم: أندريه جيد، جول رومان سورفيال، بولهان، الخ... ثم اتخذ سيوران قرارا برفض كل أنواع الجوائز. وتأكدت قيمته ككاتب باللغة الفرنسية وتوالت مؤلفاته: قياس المرارة، بحث في الفكر الرجعي التاريخ والبيوتيبيا، السقوط في الزمن، وخلال هذه المرحلة: أي مع بداية الستينات، أشرف على سلسلة دراسات ضمن منشورات «بلون»، لكنها لم تنجح على الرغم من أهمية عناوينها. فخاب ظنه وألغى السلسلة بعد صدور الكتاب السابع، فكانت تلك تجربة النشر الوحيدة التي خاضها. وتابع إصدار مؤلفاته: الخلق السيء ١٩٦٩ - مساوئ أن يكون المرء قد ولد ١٩٧٣- التمزق ١٩٧٩- تمارين الإعجاب ١٩٨٦. وفي العام نفسه: صدر له مختصر كتاب كان قد ألفه باللغة الرومانية بعنوان دموع وقديسون، ثم صدر الاعترافات واللغات سنة ١٩٨٧ وكتاب: على ذرى اليأس سنة ١٩٩٠ مترجما عن الرومانية. ينظر: إميل سيوران، لو كان آدم سعيدا، تر: محمد علي اليوسفي، ط٢، شارع الشريف ناصر بن جميل، الدوحة، ٢٠١٤، ص٩-١٠.

غموض، ولن نعثر يوما على قراءة تدعي تملك القدرة على الفهم والإفهام. هكذا هو النفري؛ لاذ بالصمت وتبعته لغته على المنوال نفسه، وأبت إلا أن تنطق وتبين في تواطؤ مكشوف مع صاحبها، فانقسم القراء حولها طرائق قديدا، ولا تزال متمنعة حصينة؛ لأنها خلقت للتأجيل لا الحسم، وللإرجاء التأويلي المفتوح، والغضارة والخصوبة القرائية، والبهوت لحظة التلقي. مواقف النفري غير ساكنة، يتلاطم فيها بحر لحي من المعاني والفهوم، كما هو حال صاحبها الذي لم يكن له مستقر يمنحه السكينة؛ فالثبات يولد السكون، واللاستقرار يولد التحول.

لذلك؛ لا تنفك مواقف النفري تفاجئنا بامتداداتها واتساع أفاقها وتصاديها مع تجارب أخرى تبحث عن مطلقها؛ وهو ما يسلمنا إلى طرح هذه الأسئلة المرجفة: هل أدرك كل من النفري وسيوران خلاصهما؟ وهل تستطيع مواقف النفري استيعاب تجربة سيوران؟ ووهل أدرك كل من النفري وسيوران خلاصهما؟ وإذا كان الفراغ من السوى عند النفري هو السبيل إلى الظفر بالضيافة ومجاورة المطلق؛ فهل أسعف الخواء العدمي سيوران في إنقاذه من «مثالب الولادة»؟

ظل سابحا في أحيازه السفلية ومناطقه المعتمة. تجربتان شذريتان يوحدهما التمزق والحركية ومخاصمة الواقع وإدانة الغير، ويفرقهما مصدر الإلهام والاستمداد: فسيوران يمتح ومضاته وتأملاته من الواقع الذي يعيش فيه ويصطلي بصراعه الوجودي. أما النفري؛ فينهل من معين صاف لا تكدره أغيار العالم الحسي، هناك حيث الوقوف على تخوم المطلق وشهود تجربة رؤيوية ترتقي به عما يموج من صراعات في عالم سفلي مظلم، وتقذف به في عالم نوراني ليس فيه سوى واقف وموقف.

كل من النفري وسيوران ارتقيا في تجربتهما؛ فالأول ارتقى وأقام في المطلق، بينما سيوران ارتقى وأقام في المحدود، ولم يعيش تجربة الوقفة بما هي انسلاخ كلي عن الواقع وتطهر من السوى. ظل سيوران يعيش في السوى وبالسوى، ولم يكن فراغه كفراغ النفري؛ إذ أن هناك فرقا بين الفراغ الذي هو امتلاء بالحب وهيام بأنوار التجلي، وبين الفراغ الذي هو خواء وعدم وهدم لكل الأعراف والأفكار والمعتقدات الكلاسيكية والأوهام التي أنتجها العقل على مر السنين حتى استحالت يقينيات وثوقية.

في إجابة له عن سؤال: كيف تتحمل الحياة؟ «أشار سيوران إلى الاستيطيقا، إلى ضرورة الكذب من أجل الوجود. ثمة دور تعزية للفن (أكتب لأتفادى نوبة... الكتابة

لكنه يختلف عنه في كونه متصوفا يستمد تعاليمه من الوقفة وعبر تجربة الرؤية؛ فيما يؤمن سيوران بالعدم النيتشوي الذي لا يتصور الوجود إلا في صورته المتشظية والفاقدة للمعنى: «فالوجود الإنساني من وجهة نظره لا يعدو أن يكون سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه أبدا»^(٣).

مع سيوران، يجد القارئ نفسه في حضرة تأمل تطبعه سمة شخصية بارزة، ويطعمه فيض من الأفكار البوذية والصوفية والغنوصية^(٤) يجعل القبض على هويته الفلسفية مغامرة محفوفة بالمخاطر؛ فخلاصه في العدم الزمني، أما خلاص النفري ففي تجربة الوقفة. كونية التصوف هذه يشترك فيها مع النفري في استرفاده من مختلف العقائد والملل والنحل التي خلقت من شخصيته مزيجا مركبا من الأفكار الغامضة. وإذا كان النفري يستقي شذراته من تجربة الوقفة المتعالية على العالم المادي؛ فإن سيوران يقر بأن ما يكتبه ليس إلا إعادة إنتاج لما يعيشه في الواقع الذي

(٣) زنار حميد، المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤٨، وينظر أيضا؛ لو كان آدم سعيدا، ترجمة محمد علي اليوسفي، أزمنة للنشر والتوزيع، ط ٢، ٢٠١٤. جاء في مقدمة المترجم: «عدمية سيوران تستبعد أي هروب خارج عدما الزمني، فكيف يمكن معانقة الأبدية في حزن الزمن؟ إنه غنوصي ذو صفاء ووضوح فكري ينكر الخلاص، متصوف ذنوي متخلص من الأشكال الماورائية. فإذا نشوة عنده حضور كلي من دون موضوع وجد؛ خواء ممثلي، وهذا اللاشيء، عنده، هو كل شيء. فلا مجال لاستعادة الحالة الفردوسية الأولى. واليائس من خلاصه يصير عالم جمال. إن الإنسان الخير هو إنسان خاو؛ إنه حكيم الأزمنة الحديثة». ص ٧.

«الموسيقى منظومة وداع توجي بفيزياء ليست نقطة انطلاقها من الذرات، بل من الدموع»^(٨).

«كلما عجزت الموسيقى نفسها عن إنقاذنا، التمتع في أعيننا بريق خنجر. لم يبق شيء يسندنا إن لم يكن الافتتان بالجريمة»^(٩).

«كم أود لو مت بواسطة الموسيقى، عقابا لي على شكي أحيانا في جبروت قدراتها الشريرة»^(١٠).

يبحث النفري عن خلاصه بالتطهر من السوى، وخلص سيوران في الموسيقى. تجربتان لا تتماسان؛ الأولى روحية الزمان والمكان، خلاصها حقيقي يقود إلى السعادة المطلقة، والثانية حسية مادية، خلاصها مزيف يسلم إلى التعاسة المطلقة. تبقى العزلة هي الملاذ الوحيد لكل من النفري وسيوران؛ اعتزال الناس والبحث عن الذات الضائعة في ثبح الوجود الحسي، وصناعة ذات جديدة لا تعترف سوى بالوقفة التي تتحقق بالرياضة والسفر عند النفري، ولا تقر سوى بالخواء الذي تحققه الموسيقى؛ «أفضل طريقة للابتعاد عن الآخرين تتمثل في أن ندعوهم إلى الاحتفال بهزائمنا. بعد ذلك؛ نحن على يقين من أننا سنكرههم إلى آخر رمق من حياتنا»^(١١).

انتحار مؤجل»^(٥). «التطهر» للعدم وفق سيوران يمر عبر تجربة الكتابة والفن والجمال لمواجهة خواء الكون بخواء الكلمة، وهو تطهر يختلف، لا شك، عن تطهر النفري؛ سيوران يقيم في اللاشيء، والنفري يقيم باللاشيء.

تعد تجربة النفري حكما توجيهية وأخلاقية طافحة بالمعنى، أما تجربة سيوران فهذيان وشطح ولعب طفولي وخفة ظل ترشح باللامعنى. التشذير في مقابل التنسيق والتقطيع في موازاة التأليف منزعان لكليهما؛ بيد أن شذرات النفري إشراقات نورانية وولادة جديدة، وشذرات سيوران عبث ويأس ومثالب ولادة. النفري يعيش منفصلا عن الحسي متصلا بالمطلق، فيما ينفصل سيوران عن الواقع الموسوم بالشر ليتصل به من جديد عبر الموسيقى:

«لما كنت بلا دفاع ضد الموسيقى، فقد توجب علي أن أستسلم إلى استبدادها، وأن أكون حسب مشيئتها إلهًا أو ثوبا رثا»^(٦).

«لو أنني استسلمت إلى إغواءات الموسيقى ومدائها لي، وإلى كل العوالم التي بعثتها ودمرتها بدواخلي، لكنت منذ زمن بعيد قد فقدت عقلي من الزهو»^(٧).

(٥) سيوران إيميل، لو كان آدم سعيدًا، ص٧. (مقدمة المترجم).

(٦) سيوران إيميل، المياه كلها بلون الغرق، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا/ألمانيا، ص١٥٠.

(٧) المرجع نفسه، ص١٥١.

(٨) المرجع نفسه، ص١٥١.

(٩) المرجع نفسه، ص١٥٢.

(١٠) المرجع نفسه ص١٥٢.

(١١) المرجع نفسه، ص ١٠٦.

سبب في تعاسة الإنسان وألمه الدائم؛ لأنها إبعاد للإنسان عن حياته الواقعية وتفكير ضوعي للذات تجاه اللاحقية. لكن البحث عن التطهير عبر الموسيقى لم يسعف سيوران في تمثل إرادة القوة والوصول إلى مفهوم الإنسان الأعلى؛ وذلك لاستسلامه للبؤس الوجودي الناجم عن غياب تلك الإدارة.

هذه الفكرة المحترقة للدين التي تبناها سيوران هي نسخة أخرى من رؤية نيتشه للدين بوصفه ناتجا عن الخوف الذي يستبد بالعبيد والمقهورين؛ إذ يرى صاحب (إنساني مفرط في إنسانيته) أن «الدين لم يحتو على حقيقة أبدا، لا بشكل مباشر أو غير مباشر، لا على شكل ركن من أركانه، ولا على شكل حكمة؛ لأن الدين إنما يولد من الخوف ومن الحاجة، وقد انسل إلى داخل الوجود من خلال سبل العقل التائه»^(١٣).

لم يستطع سيوران أن يتخلص من ريقه العبد الذي جعله رهين ما قبل الولادة؛ فإذا كان العبد النيتشوي خاضعا لسلطة الاستبداد التي يمثلها رجال الدين تمثيلا صنميا، فإن سيوران يستلم فكرة العبد هذه ليكون تحت رحمة ما قبل الولادة التي يعمل على تصنيفها وتأليها، وليسقط في بدائية التفكير الخرافي الذي اعتقد أنه كسر أغلاله بإعلانه موت الإله.

التماس الخلاص عبر الموسيقى، فكرة استلهمها سيوران من نيتشه الذي يعد الموسيقى هي السبب في استمرار الحياة وبواسطتها يمكن التعبير عن العواطف والانفعالات بشكل شفاف وواضح؛ لأن اللغة قد تكون قاصرة عن استيعاب المفاهيم وتصوير الأشياء كما هي. غير أن الموسيقى لها هذه الميزة التي تجعلها تصف الأحاسيس بدقة وتعبر عن الوجود الإنساني في كليته، كما تخفف من الشعور بالألم أو الحزن بتجريدتهما من الذات، مع السخرية من الإطار الاجتماعي بنسق مغاير تخلقه الموسيقى التي تمثل الحياة الحقيقية، وتصبح تلك اللغة التي يمكن أن نعبر بها عن الأغراض والمقاصد، وتجاوز بها مع الأرق والسهاد لإنتاج المعرفة وتحقيق فعل التعلم الليلي الذي يعجز عن القيام به أثناء الخلود إلى النوم وخارج النسق الموسيقي؛ لأن «الأرق وعي مدوخ قادر على تحويل الفردوس غرفة تعذيب. ما من شيء إلا وهو أفضل من هذه اليقظة الدائمة. هذا الغياب الأثم للنسيان»^(١٤). هنا تتدخل الموسيقى لتحويل آلات الفتك والتعذيب إلى ساكسوفون يهدي لسيوران أنغاما تتلبس بجسده الذي أنهكه السهاد مخلصه إياه من عذاباته الليلية، ومنتشلة روحه من صراعاها الأبدى مع الموت. وهي الفكرة نفسها التي آمن بها شوبنهاور الذي اعتبر أن الفن استراحة مؤقتة من بؤس الحياة واستغراق في تأمل الماورائي فيها، ونأي عن فكرة الدين التي هي

(١٣) نيتشه فريدريك، إنساني مفرط في إنسانيته، كتاب العقول الحرة، ج١، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢، ص٧٥.

(١٤) سيوران إيميل، المياه كلها بلون الغرق، ص١٢.

والآن سأكون شاغرا إلى الأبد»^(١٥).

«بدون الله كل شيء عدم. والله؟ العدم الأقصى»^(١٦).

مما سبق؛ يجب التنويه إلى أن إجراء المقارنة بين النفري وسيوران، لم يفرضه وجود تقاطع على المستوى الفلسفي أو الرؤيوي؛ وإنما هو نزوع جزئاً إليه شكل الكتابة الذي هو شذرات ومتفرقات كثيفة الدلالة، عميقة المعنى. وإلا لما كان هناك خيط سليل رابط بينهما؛ لأن المنطلقات التي تتأسس عليها نظرتهما إلى الوجود والكون تختلف دينياً ما بين الإيمان الراسخ بالله تعالى والإلحاد المبين. ولكننا نعتزف أن كلنا التجربتين حادثة وخروج عن المؤلف وتجديف ضد التيار، وتوق نحو التحرر لتصير الذات لا شيئاً؛ على اختلاف في طريقة إدراك الحرية واللاشيء وتمثل مفهوم الخواء والفراغ، وهي التأملات الفلسفية التي نجد صداها في كتابه: (السقوط في الزمن).

- الخواء العدمي والتماس التطهر/الممكن والمستحيل:

يقول سيوران: «وإذا كان الخواء يغدو معرفة، فإن التصوف يغدو فاقداً للمطلق... الإخفاق هو الصيغة العصرية للعدم. طيلة حياتي كنت مفتوناً بالفشل وما يعقبه من ندم؛ وهو ما عبرت عنه في كتابي (على ذرى

التغلب على الذات أو نفيها هو قانون التجاوز الأنطولوجي الذي يفضي إلى الإنسان الأعلى؛ فكل الأشياء العظيمة تلقى حثفاً في نفسها بواسطة عملية نفي ذاتي^(١٤). لكن لا إرادة لسيوران لكي يتغلب على ذاته متجاوزاً ذاك الصراع الداخلي معها، ولا قدرة له على تحقيق إنسانيته في شكلها الأعلى الذي تنسلخ فيه الذات عن لحظة الحاضر المرتهنة للولادة المأساوية. وإذا تحقق له هذا التجاوز، فإنه لا يتعدى لحظة انفلات أو انسلال من رقابة الآن، فسرعان ما تعود الذات إلى حالة الإثبات بدل النفي؛ ليعاود ممارسة إنسانيته في شكلها الأسفل. لا طهارة مطلقة مع الموسيقى، ولا خلاص حقيقي بها مادامت إمكانية العود متاحة وبالحاح.

واستتباعاً لثنائية الفراغ والامتلاء، نرى أن النفري شاغر من السوى ممثلياً بالله. أما سيوران، فشاعر من الله ممثلياً بالسوى، وهاجسه: كيف يمكن تحويل الخواء إلى امتلاء؟ لكن شتان بين امتلاء سيوران وامتلاء النفري؛ أي شتان بين اللامعنى الذي يسود الوجود، والمعنى المطلق الذي يشهده الواقف في لحظة المجاورة. هما تجربتا هروب: واحدة من الآن إلى زمن العدم، والأخرى من الآن إلى الزمن اللامتناهي. «ينبغي عليك أن تعمل، أن تكسب قوتك، أن تستجمع قواك-قواي؟ لقد أهدرتها، لقد استعملتها كلها في محو آثار الله فيّ.

(١٤) نيتشه فريديريش، هكذا تكلم زرادشت، كتاب للجميع ولغير أحد، ترجمه عن الألمانية، علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص ٢٢٤.

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٠٦.

(١٦) المرجع نفسه، ص ١٠٢.

بدل الحياة، ولا يفلح سيوران حيث أتى في الانتصار للحياة الوهمية التي انتشلتها قسرًا من ثبج الحياة الأولى. وإذا كان سفر سيوران رحلة من الولادة إلى الموت، فإن ركوب النفري طريق المجاهدة والذكر هو تطبيق من الموت الرمزي الذي جعله يحيا التغرب والشقاء إلى الولادة الحقيقية التي شهدت عليها الوقفة.

يلتقي النفري مع سيوران في الرغبة الجامحة في معانقة المطلق؛ لكن سيوران مدفوع قسرًا إلى اللاممكن الذي هو إنذار باللاخلاص أو باللاعودة إلى المقام الأول. الانمحاء في الوجود، والقنوط من الحيز الضيق والمدلهم، تغرب وشتات ما كان له أن يحياه لولا تلك الولادة المشؤومة التي حكمت عليه بالانتماء إلى وجود مشوه وإلى حياة واعية وعيًا متشظيًا. سؤال اللاوعي هو الإشكال الذي يريد سيوران الإجابة عنه: أي كيف يمكن أن يعيش بلا وعي في المجتمع؟ وما السبيل إلى إعادة إنتاج اللاوعي القبلي الذي كان عليه قبل لحظة الولادة المشؤومة؟

هي أسئلة حارقة ومربكة وبلا معنى: لأن الإجابة عنها معدومة لا أثر لها في مجتمع مختل لا يلائم طموح سيوران في حق العودة إلى الوطن الأول بعد انحداره إلى وطن بلا هوية؛ هو أشبه بمن قذفت به ريح عاصفة في صحراء مجذبة لا حياة فيها إلا من بعض الكائنات الكسيحة كزبد السيل

اليأس»^(١٧)؛ الخواء عند سيوران معرفة، وخواء النفري في حل من المعرفة التي هي ضرب من السوى. والتصوف عند الأول فاقد للمطلق؛ ومن ثم فهو لا يتجاوز حدود الزمن الفيزيائي والمكان الهندسي. بينما تصوف النفري فراغ وانطلاق نحو الأفق اللامحدود وإقامة برزخية على تخوم السماء.

لقد زاد تصوف سيوران في تعميق شروخ الذات وتمزيق الهوية؛ لأنه تصوف دنيوي وعدمي يخلو من محبة الله ويمتلئ بالعدم، ويسقط في مغبة وهم الخلاص الذي لم يسعفه في تجاوز أزمة الذات ومأساوية الوجود الإنساني. وفي مقابل ذلك؛ وجد النفري خلاصه في التصوف الحقيقي الذي تجلى في الوقفة، وتحول معه الفراغ إلى امتلاء أدى إلى ترميم الذات اللمتشظية.

ثمة حركتان في مسارين مغايرين؛ حركة في اتجاه عمودي نحو الما بعد، أو من الآن إلى الأين، يجسدها النفري. وحركة سيوران إلى الما قبل، أو إلى المرتع الأول الذي كانت فيه النفس في جبلتها الأولى تنعم بالأمن والطمأنينة والسعادة، قبل أن يقذف بها ألم المخاض إلى قعر سحق تثوي فيه مأساة الوجود وتقيم فيه الذات مناحة ترثي فيها الطرد المتعسف من رحمة الرحم. هي مثالب للولادة، ينبجس منها الموت

(١٧) سيوران إيميل، لوكان آدم سعيدًا، ترجمة محمد علي اليوسفي، أزمنة للنشر والتوزيع، ط ٢٠١٤، ص ١٧.

بين الإمكان والتحقق، بين القلق والندم، بين ذم الحياة والزهد فيها، وهجاء الولادة وتعداد مثالبها والصراع مع المجتمع، وبين ربح رهان الوجود بعد الوقفة، وخسران رهان الكينونة بعد الولادة.

بؤرة الكتابة عند سيوران هي الولادة التي ظل عاكفا على ذمها واحتقار لحظتها التي تقود إلى المأساة الأبدية، وهي الموضوعة التي استبدت بجميع كتبه^(١٩). أما النفري فدان بالولاء للوقفة التي جعلته يداني مقامًا كاد يفارق به حكم البشرية. الولادة تجذير لمأساة سيوران، وصدفة غير سارة، وكارثة، ونكبة: «نحن لا نركض نحو الموت، نحن نفر من كارثة الولادة ونتخبط مثل ناجين يحاولون نسيانها. ليس الخوف من الموت سوى إسقاط على المستقبل لخوف قادم من لحظتنا الأولى. يصعب علينا طبعًا أن نعتبر الولادة نكبة. ألم يرسخ فينا أنها النعمة الأولى، وأن الأسوأ كامن في نهاية مسيرتنا لا في بدايتها؟ إلا أن الشر، الشر الحقيقي، يكمن خلفنا لا أمامنا»^(٢٠).

الولادة هي الأزمة الحقيقية للذات في صراعها مع الوجود والكينونة، وهي الشر المستطير القابع في الخلف. لا يلوم سيوران

(١٩) نذكر، ههنا، كتاب (موجز العفن)، وهو أول كتبه المكتوبة باللغة الفرنسية، والصادر في باريس سنة ١٩٤٩، و(مساوي) أن يكون المرء قد ولد) المنشور سنة ١٩٧٣، وكتاب (على ذرى اليأس)، و(كتاب الأوهام) ، و (دموع وقديسون)، و(غسق الأفكار)، و(القياسات المنطقية المرارة)، و(إغواء الوجود)، و(السقوط في الزمن)، انظر: زنار حميد، المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط، ٢٠٠٩، ص ١٩.

(٢٠) سيوران إيميل، مثالب الولادة، ص ٨.

الذي تنتجه الغنائية.

الوعي المشروخ حالة من الانهماك الأبدي ومن جلد الذات حسرة وندمًا على حياة تتلذذ بالتعذيب، وكلما هم سيوران بتكسير قيودها للانطلاق إلى عالمه اللامرئي، وجد نفسه في مثاهة الكينونة لا قدرة له على مجابهة أحاديدها العميقة ومقارعة خطوب المستحيل؛ ليظل طوق النجاة مفقودًا، وليكون العزاء حوارًا مع الصوت المبوح والذات الممزقة؛ إنه حوار بطعم الصراع والقلق والنار المستعرة في الأحشاء. هي محاكمة يستوي فيها القاضي والجلاد، يظل الحكم فيها منذورًا لأجل غير مسمى، وإن كان يدرك عاقبة المآل الذي آلت إليه الولادة. يقول في (مثالب الولادة): «منذ وجدت-تبدو لي هذه المنذ مشحونة بدلالة مرعبة إلى حد لا يطاق»^(١٨). الزمن ذكرى سيئة تقلب المواجه وتحرك فيه ذاك الوحش الذي يتخذ من ذات سيوران مملكته للفتك وإيقاع الهزائم المتتالية.

وعلى الخلاف من ذلك؛ يعيش النفري وعيًا منسجمًا مع الذات، وهو ما ارتقى بالوقفة/الخلاص إلا ليعود أكثر تصالحًا مع الذات بعد الحوار مع الله الذي علمه ما لم يعلم. لقد سعى النفري إلى المطلق الممكن؛ فيما رام سيوران المطلق اللاممكن. بين التجربتين برزخ يقيم الحدود

(١٨) سيوران إيميل، مثالب الولادة، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، بغداد-بيروت، ط ٢٠١٥، ص ٧.

تقدير، هي ما يجعلني أفهم البوذا؛ لكنها هي أيضا ما يمنعني من اتباعه»^(٢٣).

هكذا تبدو نظرة سيوران إلى الذات والعالم والناس. وثمة انزياح واضح عن وقفة النفري التي هي ولادة جديدة وهبت الحياة له بعدما كان ميتاً في مجتمع لا يلائمه. وعندما عاد من سفره النوراني ومن إقامته المقدسة، أيقن أن هذا القبس الرباني هو المعادل الموضوعي للعزاء والأنس اللذين كانا مفتقدين قبل الوقفة التي شهد فيها الرؤية؛ «وقال لي: في الوقفة عزاء مما وقفت عنه، وأنس مما فارقتة... وقال لي: الواقف لا يروقه الحسن، ولا يروعه الروع، أنا حسبه والوقفة حدّه»^(٢٤). حسب النفري وقفة، وحسب سيوران لا ولادة، وعزاء الأول مجاورة الحق والتواصل الحقيقي معه، وبه، ولا عزاء للثاني سوى اللوذ بالصمت. يقول سيوران: «التواصل الحقيقي بين الكائنات لا يتم إلا عن طريق الحضور الصامت، عن طريق اللاتواصل الظاهر عن طريق التبادل الملغز والخالي من الكلام، الشبيه بالصلاة الباطنية»^(٢٥).

هنا يتقاطع النفري مع سيوران بعدما اختلفا في تمثل موضوعة الولادة؛ ذلك أن

الآن ولا المستقبل، بقدر ما يعيب على لحظة فارقة من عمر الزمن تغير معها التاريخ، وأفرزت شخصية ناقمة على البدايات التي كانت مقدماتها خاطئة، فنتجت عنها نهايات خاطئة.

يضيف في شذرة أخرى: «دائم الضيق بما هو آني، لا شيء يغريني سوى ما يسبقني، ما يبتعد بي عن هنا. تلك اللحظات التي لا حصر لها حين لم أكن بعد: ما لم يولد»^(٢٦). ذلكم هو السؤال الجوهرى الذي يشغل ذهن سيوران؛ كيف التخلص من حالة الضيق والضرر التي تتغشاها، فتجعله لا يفرح بالآن والهناء، ويمني النفس بالعودة إلى الخلف لاسترداد لحظة اللاكينة حينما لم يكن؟

ويرد في موضع آخر: «إذا كانت الهتي عاجزة، فثمة ما يدفع إلى الاعتقاد بأن ألهتكم ليست أقل عجزاً. ولو سلمنا بأنها كما تتخيلون، فإنها تظل مفتقرة إلى القدرة على شفائي من رعب أكثر شيخوخة من دائرتي»^(٢٧).

يسلم سيوران بعجز ألهته عن انتشاله من سقمه ورعبه الوجودي، ويؤمن أن خلاصه في اللاولادة، وهو أمر مستحيل، ما دام قد تورط في هذا الحدث الذي يشكل المهاد ويعصف بالذات في نكبتها وفي خيبتها التي هي الشبيء الوحيد القادر على فعله: «قدرتي على الخيبة تتجاوز كل

(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٢٤) النفري محمد بن عبد الجبار، المواقف والمخاطبات، تصحيح واهتمام آرثر يوحنا أربري، مكتبة القاهرة، المتنبى، ص ١١-١٢.

(٢٥) سيوران، مثالب الولادة، ص ١٢.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ٩-١٠.

(٢٧) المرجع نفسه، ص ١٠.

المطلق. ولا شك أن إدراك بديل النفري تحقق بعدما طرح نفسه/حجابه: «يا عبد: أنت حد نفسك، وأنت حجاب نفسك كيف كنت وكيف تعرفت إليك، وأنت منظري، فلا الستور المسدلة بيني وبينك، وأنت جليسي لا الحدود بينك وبينك»^(٢٨).

- كل شيء كابوس/ البحث عن نيرفانا بوذا

الستور المسدلة-بتعبير النفري- هي الحجاب بين سيوران والحقيقة، هي الولادة المذمومة. ولو تخلص سيوران من أوجاعها ومثالبها، لظفر ببديله المنتظر. كلاهما في اتصال وانفصال: النفري متصل بالله ومنفصل عن السوى، وسيوران متصل بالذات المقهورة ومنفصل عما هو خارجها. إنه أسير الفلسفة الهندية التي تدعو إلى تجاوز الأنا؛ لكن كل ما يفكر فيه ليس سوى الأنا ومحن الأنا التي لا تستطيع بلوغ درجة الكمال أو النيرفانا؛ حيث التحرر التام من العالم المادي والوصول إلى حالة الانطفاء والإحساس بالنشوة القصوى. لا يجدي أن يقوم صاحب المثالب باليوغا الهندوسية للوصول إلى (الموكشا) والانعتاق من دورة الحياة والموت، والاتحاد بالكلي (البراهما). وإذا كانت اليوغا تربيةً للنفس، وتحكمًا

اللوذ بالصمت والتبادل الملغز المشوب بالرمز هو التواصل الوحيد، وهو تواصل مضمّر لا ظاهر. أشبهه بتأملات الحكيم المتبصر، أو لنقل أشبهه بصلاة باطنية على حد تعبير سيوران. كلاهما يطلب ويسأل؛ لكن طلب الواقف مجاب، وطلب غير الواقف لا يلتفت إليه: «وقال لي: اطلب كل شيء عند الواقف تجده، واطلب الواقف عند كل شيء لا تجده»^(٢٩).

الحرية عند النفري انفصال عن السوى وبديل عن العالم السفلي، فيما الحرية عند سيوران أشبه بمن يولد ميتًا، وهو البديل الذي ينتظره: «ليتني أكون حرًا، حرًا إلى حد الجنون، حرًا مثل وليد ميت... لا بد من رؤية بديل، مادامت رؤية القيامة لم تعد ترضي أحدا»^(٣٠).

الرؤية النفرية تحققت واندثر معها الحجاب الفاصل بين الله وبين الروح، والسوى وكل الأشياء المعاينة في عالم المادة ما هي إلا مساكن للشياطين. لكن رؤية سيوران لم تتحقق لانعدام البديل: الأمر الذي ينضح عنه الاستسلام لدور المنتظر الأبدي. يعيش سيوران منتظرًا غودو الذي لن يأتي، ويظل مرتها لوسواس الأنا الذي يحجبه عن رؤية بديله. ويحيا النفري لمعادوة الرؤية والانفصال عن حدود الذات، بعدما شهدتها وأقام في

(٢٦) النفري، المواقف والمخاطبات، ص ١٣.

(٢٧) سيوران، مثالب الولادة، ص ١٥.

(٢٨) النفري، المواقف والمخاطبات، ص ١٤٨.

التأمل الحق...^(٣٠). وقد كانت هذه التعاليم بمثابة فلسفة أخلاقية يرتد فيها كل شيء في الحياة إلى الخلق الرفيع^(٣١): فكان قلبه بلا إحساس بالألم، استحق معه وصف المستنير الداعي إلى التسامح والصفح والعفو. حاول سيوران تجاوز ألم الولادة والإحساس بالضيق في مجتمع بلا ملامح ولا هوية؛ لكنه لم يكن بمقدوره التطهر من نغمته على البداية التي كانت أصل الألم، وأخلاقيات بوذا لم تكن -سوى مسكنات لوخز لا يفتأ يعاود الظهور بلا هوادة. اكتشف سيوران ألمه، واكتشف معه السبب (الولادة) لا الشيخوخة أو الموت أو المرض، وأدرك أنه لا طريق إلى الخلاص سوى معاودة الشعور بالألم؛ وهنا كانت المفارقة مع خلاص بوذا من جهة كونه بصيرة وتأملاً وبحثاً عن الحكمة، وخلاص النفري من حيث هو وقفة ورؤية وانسلاخ عن الذات بالفراغ. البصيرة، والحكمة، والهدوء، والمعرفة، والاستنارة الكاملة:

(٣٠) السبيل إلى القضاء على أسباب المعاناة هو الطريق الأوسط ذو الشعاب الثماني، وتشكل هذه التعاليم أولى عظمات بوذا بعد استنارته، والتي ألقاها في حديقة الغزلان في بنارس. فإذا وصلنا إلى الحقيقة النبيلة الرابعة التي تفضي إلى وقف المعاناة نجده يقول: «إنها الطريق ذو الشعاب الثماني؛ أعني: سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفهم، وسلامة الجهد، وسلامة العيش، وسلامة ما نعني به، وسلامة التركيز». انظر: جون مولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، يوليو ١٩٩٥، ص ١٨٣-١٨٤.

(٣١) عادة ما يتم تلخيص تعاليم بوذا في الحقائق الأربع النبيلة: هناك معاناة- هناك مصدر لتلك المعاناة- يمكن وقف تلك المعاناة- هناك طريق لتلك المعاناة. ينظر: موسوعة ستانفورد للفلسفة، سيدريتس مارك، ترجمة أمين حمزاوي، مراجعة سيرين الحاج حسين، ص ٦.

بالجسد، وترويضاً للشهوات، فهي تقترن بـ(أهيمسا): أي اللاعنف والكف عن توجيه الأذى إلى الآخرين. فمطلب تحرير النفس لتتحد بـ(البراهما) هو غاية اليوغا^(٣٢). لكن سيوران ناقم على الحياة وما فيها من كائنات؛ بل ناقم على جسده الذي لفظت به الولادة إلى حيز الوجود الذي يزداد ضيقاً على شساعة أحيازه، وقد كان حراً زمن ما قبل النكبة أو الكارثة.

فكرة اليوغا هذه جسدها النفري بطريقته الخاصة؛ عن طريق تحرير الحواس، والصبر الذي لا يهرم، والفهم الذي لا يعقم، والتطهر للوقفة. فكان أن وصل إلى تطويع النفس بالرياضة والسفر؛ وهو ما لم يتحقق مبتغاه مع سيوران الذي بقي حبيس ذاته، مدرجاً يقيناً أن المارد لن يخرج من قمقمه، وأن السقيم لن يشفى من أسقامه وآلامه؛ لأنه لا يعيش حالة من الانفكاك عما يشغل النفس من شؤون الدنيا، كما أنه لا سبيل إلى التخلص من الألم، كتخلص بوذا الذي أصدر صرخة حق حتى وصل إلى حالة السكون والسلام الكامل التي اندغم فيها المقدس بالمدنس، وذاب فيها الشر في الخير، وانصهر من خلالها الباطل في الحق الذي هو (العمل الحق، السلوك الحق، الكلام الحق، الجهد الحق،

(٣٢) السحمراني أسعد، ترجمان الأديان، دار النفائس، ط١، ٢٠٠٩؛ وخاصة الفصل الثالث المتعلق بالهندوسية، ص ٧٨.

المطلقة عند النفري الذي وجدها في الوقفة والمجاورة. فإذا غابت الحقيقة في دنيا الناس، فإن النفري يلتمسها في السماء؛ إذ لا مقصود غير الله تعالى، ولا منجى منه إلا إليه. العثور على الحقيقة الإلهية في الوقفة أعاد صياغة الذات العرفانية عند النفري، وخلصها من وهم الحقيقة الذي ران على العقول والقلوب حتى أحوالها حجابا يحجب رؤية الحقيقة عارية. الحقيقة عند النفري مدارها على الغياب والحضور بين زمن ما قبل الوقفة وزمن الشهود المتحقق بالوقفة: «وقال لي: الشاهد الذاكر إن لم يكن حقيقة ما شاهده، حبه ما ذكر»^(٣٤). فيما الحقيقة عند سيوران تنطلق من تفسير أحادي عدمي ينتصر للحقيقة بدون موارد، وفي استسلام وخضوع لمبدأ التسليم والإذعان على حساب منطق البحث والتقصي وإعمال البرهان العقلي. ولكنه سرعان ما يدرك أنه من القهر تنبجس القوة وينفجر عنفوانها بالابتعاد عن العالم، ونكران وجوده، والزهد في الناس والأشياء بوصفه سلوكا ينطوي على حقيقة ولو مؤقتة: «يا للقوة الانفجارية لأدنى إحساس بالقهر. كل رغبة مهزومة تجعلك قويا. نحن نؤثر في العالم بقدر ابتعادنا عنه وإنكارنا له. إن الزهد في الدنيا يمنح سلطانا لا حد له»^(٣٥).

النفري ما تحقق مع بوذا والنفري وأعدم مع سيوران.

بعد الاسترفاد الواضح من الفلسفة الهندية والمعتقدات البوذية التي يضمنها سيوران شذراته متحا فيه تصرف وتحويل يعيد من خلاله صياغة تعاليمها بما يتوافق مع نفسيته المشروخة: «كل شيء ألم»، هذه الصيغة البوذية يمكن أن تصبح إذا تم تحديثها- (كل شيء كابوس)^(٣٦). لا يتوافق سيوران، شأنه شأن النفري، مع العالم الأسفل؛ لأنه جاء إليه يسابقه الإحساس بالعار والندم على لحظة انسلال بدافع الفضول، لم يكن يدري معها أنه يساق إلى عذابه الأبدي. لكن النفري وجد الحق بالفراغ، وكانت روح تعاليم بوذا تسري في قلبه النقي الصامت في واقع ناطق بألوان الصراع. إن مذهب الفراغ عند النفري يوازي مذهب اللاشيء عند بوذا. أما سيوران؛ فكل شيء عنده غير حقيقي، ولا يرى سبباً حقيقياً يدفعه للبرهنة على ذلك^(٣٧).

لا حقيقة الأشياء تعني أنها مزيفة ووهمية وغير خالصة؛ سواء كانت في عالم المادة أو عالم الروح. إن تصورا كهذا، يمعن في تعميق الصدع النفسي ويحيل الحقيقة شيئا هلاميًّا لا يمكن الإمساك به. هذا المنزع العدمي يساوي بين غياب حقيقة الوجود المادي وتلاشي حقيقة الله، في مخالفة لمفهوم الحقيقة

(٣٤) النفري، المواقف والمخاطبات، ص ٣.

(٣٥) سيوران، مثالب الولادة، ص ٤٣.

(٣٦) سيوران، مثالب الولادة، ص ٢٠.

(٣٧) سيوران، المرجع نفسه، ص ٤٢.

- الكتابة بين الوقفة ومثالب الولادة:

شذراته التي تتشرب فلسفة شوبنهاور التشاؤمية. يقول: (تراودني فكرة الانتحار منذ أيام، أنا أفكر في الانتحار دائماً- توجد لذة في مقاومة غواية الانتحار- فكرة الانتحار هي أكثر الأفكار إنعاشاً- هدية عيد ميلادي: تعاودني فكرة الانتحار القديمة من جديد-كارولين فون غونديروود، لا أحد فكر فيها مثلي، لقد أشبعني انتحارها- ما دون الانتحار كل تدمير هو بسيط- منذ أيام أقرأ قصص هاينرش فون كلايست: انتحاره هو ما يملأ تلك القصص بعدا آخر- انتابنتي نوبة اكتئاب حادة تقود للانتحار- ما أن نرفض التعايش مع فكرة اللاجدوى حتى نسقط في غواية الانتحار- في بداية العشرينات كنت قاب قوسين أو أدنى من الانتحار- علي أن أكتب مقالة عن تولستوي في الفترة التي كانت فكرة الانتحار لا تغادره- لم أكن يوماً قريباً من الانتحار بسبب الخوف من آلامي أكثر من الآن- الطبيب الذي توجهت إليه من أجل أمعائي سألني إذا ما كانت لدي أفكار انتحارية، أجبته قائلاً: طوال حياتي لم تكن لي أفكار غيرها- فكرة الانتحار تعود- على حد علمي لم يركزوا كثيراً على أهمية الانتحار لدى دوستوفسكي. الانتحار أكثر ما يدهشني لديه، بعد روح الدعابة طبعاً- هناك إشاعة منتشرة أن باول سيلان انتحر في مستشفى باريسي- أن تكتب عن الانتحار هو أفضل من أن تفكر أنك ستقوم به. لا يوجد موضوع أكثر

إذا كان النفري قد كرس كتابه للوقفة بما هي عماد المواقف والمخاطبات، فإن ما يقابل ذلك عند سيوران هو الولادة: على اختلاف بين مدح الوقفة وهجاء الولادة. ذلك أن (مثالب الولادة) هو تبئير لأزمة البدايات التي تهيمن على فلسفته وتصوفه، وهو حين لزمنا ما قبل الزمن. ولما كانت الولادة بؤرة فلسفة سيوران ومحور تصوفه الوجودي، كان من البدهي أن نجد سريان هذا المفهوم ليطال كل شذرة من الشذرات المبتوثة في الكتاب. ولعل ذلك يعكس استبدال الولادة الآثمة بمجمل تصوراته حول الوجود والكون وتشظيها لتلامس كل كلمة يهمس بها في مجموع تواليفه المتغنية باليأس من الحياة ومن كل ذرة فيها. استبدال مساوئ الولادة أشبه باستبدال الوقفة بتصوف النفري: إذ نعثر في كتاب (المواقف) على اتساع رقعة المساحة التي تستأثر بها الوقفة، مما لا تخطئه العين: سواء ما تعلق تصريحاً بموقف الوقفة، أو ما جاء تلميحاً في بقية المواقف. كما نجد مثال الولادة التي تتقاطع مع فكرة الانتحار بوصفها حاجساً يهيمن على نفسيته المحطمة التي استنفدت قدرتها على الموااساة، ويتسلل هذا الهاجس الأسود إلى معظم

إراحة منه- ستكون عطلتي مخصصة تماما لمقالي حول الانتحار، لقد تحول هاجسي إلى واجب علي القيام به...^(٣٦). إن تتبع حضور إيقاع الموت والتفكير في موضوعة الانتحار عند سيوران. يستدعي منا أفرادها بدراسة مستقلة. وحسبنا هذه الإلماحات للتدليل على الفراغ الروحي الذي يجوف الحياة من معناها، ويدفع الإنسان إلى اللاجدوى. ولعل في هذه المشاعر السلبية إفصاحًا عن عدم القدرة على مجارة الواقع، والشعور بالتفرد عن المجتمع، والشذوذ عن نسقه ونظامه؛ فيترجم ذلك في خلق علاقة من التوتر والانزياح عن كل ما ليس أنا، ويتعاضم التفكير في الخلاص من عالم ضيق يعجز عن استيعاب حجم أحلامهم ومطلقهم الوجودي. وفي خضم هذا الارتباب، يكون هاجس الانتحار أكثر نشاطًا في الذات الفارغة من كل شيء، للتعويض عن الإحساس بعدائية الآخر الذي يلفظه إلى هوامش النفس الرابضة في سكونها الأبدي حيث التمرغ في الفناء الاختياري.

حاصل وتتويج:

لم يفلح سيوران، حيث أتى، في الوصول إلى مطلقه؛ لأنه بحث عنه خارج الشرط الروحاني والتمسه داخل الذات التي

(٣٧) سورن كيركارد (١٨٣٠-١٨٥٥)، فيلسوف دانماركي، شاعر ولاهوتي، وناقد اجتماعي، مؤسس الوجودية المسيحية.

(٣٦) نجد هذه الأفكار السوداوية ماثوثة في كتابه «مثالب الولادة» في صفحات متفرقة تهيمن على مساحة الكتاب.

تصديع الذات والحكم عليها بالموت الرمزي، بينما أسهمت الثانية في رتق النفس العلية رتقا روحيا بعدما رفعتها إلى مدارج السالكين نحو مقام المجاورة الربانية.

تلكم مجاورة محضنها القلب ومأناها الوجد الذي ينفذ في أقطار الباطن الخفي متعالياً على العقل القاصرة دوائره عن إدراك الرؤية الحقة. إنها ضرب من المناجاة المباشرة التي تسقط فيها الوسائط، وتعيد بناء علاقة الواقف بالموقف بشكل يجعل التجربة هي المحك الحقيقي الذي يصير الوقفة في حل عن الوسائط أو السوى بتعبير النفري، وهو ما يجعله يملك الكون الذي غدا في البداية حرجاً ضيقاً؛ ولكنه سرعان ما استحال فراغاً سابقاً في الشساعة اللامتناهية. جاء في موقف (الوقفة): «وقال لي: إن بقي عليك جاذب من السوى لم تقف»^(٣٨). والسوى ما هو إلا غشاوة تحجب الرؤية عن الوصول إلى الله والسباحة في ملكوت المطلق متحلاً من الغيرية والوهم الذي ران على العقول، فجعلها غير قادرة على إدراك زيف الأشياء خارج نطاق الفراغ. إنه توق إلى الخلاص من ربة السوى المخاتل؛ إذ تتعدد وجوهه للتحايل على الواقف حتى لا يدرك المطلق، وهو ما يجعل العلاقة

ولما كان ذلك كذلك؛ كان سيوران متعالياً على الواقع الموضوعي وعلى وجوده غير الحقيقي، متماهياً مع الواقع الفردي ذي الوجود الأصيل. لكنه أخفق في إيجاد ما كان يصبو إليه، رغم اغترابه الميتافيزيقي وطوباويته الحاملة. وليس التفكير المتكرر في الانتحار سوى تعبير عن الخواء الروحي الذي استبد بالذات الفردية المجتثة من عوالمها الخارجية؛ ليكون الفراغ عنده رديقاً للا معنى والعدمية، وليس تطهيراً للنفس حتى تستقبل الحق وتتحول إلى كيان ممتلئ بالإيمان الروحي.

إن تشذير الصراع الداخلي في منأى عن الشرط الروحي، هو لا شك تأييد للمأساة، ونفي للحقيقة التي تقود إليها المجاهدة والمخاطرة، وضياح في وجودين؛ وجود داخلي تقبع فيه الذات المنشطرة وقد أغلقت على نفسها في دوامة القلق وجدل الأنا مع الأنا، ووجود خارجي شكل عداء مستمرًا للذات الراغبة في التحرر من أساسها الموضوعي. وفي ظل تنازع وظائف الهيمنة بين الذات باعتبارها أصلاً، والموضوع بوصفه فرعاً، ضاع سيوران في متهاة الوجود ولم يظفر بالحقيقة في كلا الوجودين. وعليه؛ تكون تجربة العبور عند سيوران من الفراغ إلى الفراغ، وتكون تجربة العبور عند النفري من الفراغ إلى الامتلاء. ولقد عملت التجربة الأولى على

(٣٨) المواقف والمخاطبات، ص ٩.

فتحي، منشورات الجمل، بغداد-بيروت، ط ٢٠١٥.

- بلقاسم خالد، الصوفية والفراف: الكتابة عند النفري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٢.

- زناز حميد، المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٩.

- نيتشه فريديك، إنساني مفرط في إنسانيته، كتاب العقول الحرة، ج ١، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢.

- نيتشه فريديش، هكذا تكلم زرادشت، كتاب للجميع ولغير أحد، ترجمه عن الألمانية، علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

- السحمراني أسعد، ترجمان الأديان، دار النفائس، ط١، ٢٠٠٩.

- جون مولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، يوليو ١٩٩٥.

- سيدريثس مارك، موسوعة ستانفورد، ترجمة أمين حمزاوي، مراجعة سيرين الحاج حسين.

- سورن كيركارد (١٨٣٠-١٨٥٥)، فيلسوف دانماركي، شاعر، ولاهوتي، وناقد اجتماعي، مؤسس الوجودية المسيحية.

بين السوى والمطلق مبنية، أساسا، على النزاع الدائم بين الرغبة في الاتصال التي يستثيرها التحرر من الحجب والأوهام، والسعي إلى الانفصال الذي يحفزه ما سوى الله: «فبقدر تمنع السوى وتعدد وجوهه وتفاوت درجات هذه الوجوه، بقدر مسعى السالك إلى الفكك منه والانفصال عنه. فتحول هذا الانفصال إلى هاجس وجودي هو ما يتيح الخروج من العموم إلى الخصوص: لأن الوقفة تجربة تتجاوز ممكن العامة»^(٣٩). هذه هي المفارقة التي جعلت مطلق النفري يغير مطلق سيوران الموجل في العدمية والخواء الروحي.

البليوغرافيا:

- النفري محمد بن عبد الجبار، المواقف والمخاطبات، تصحيح واهتمام آرثر يوحنا أربري، مكتبة المتنبى، القاهرة.

- سيوران إيميل، لو كان آدم سعيدًا، ترجمة محمد علي اليوسفي، أزمنة للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٤.

- سيوران إيميل، المياه كلها بلون الغرق، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا/ألمانيا.

- سيوران إيميل، مثالب الولادة، ترجمة آدم

(٣٩) بلقاسم خالد، الصوفية والفراف: الكتابة عند النفري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ص١١٧.